الانتماء الاجتماعي والمتغيرات اللغوية عند بازل برنشتاين ووليام لابوف مقاربة صوتية، معجمية، تركيبية

د. عزيز المحساني
وزارة التربية والتعليم، المغرب
البريد الإلكتروني: azizelmahsani@yahoo.com
معرف (أوركيد): ٠٠٠٩-٠٠٠٠-٩٨٤٨-٩٨٩٢

بحث أصيل الاستلام: ٢-١-٢٠٢٦ القبول: ٢٤-١٠-٢٠٢٦ النشر: ٣١-١٠-٢٠٢٦

الملخص:

تبحث هذه الدراسة في العلاقة بين الانتماء الاجتماعي والمتغيرات اللغوية لدى بازل برنشتاين (Basil Bernstein) ووليام لابوف (William Labov) من منظور تركيبي ومعجمي وصوتي، منطلقة من فرضية أن الانتماء الاجتماعي يشكل عاملاً مؤثراً في تكوين المتغيرات اللغوية، وتعتمد الدراسة منهجاً وصفياً تحليلياً مقارناً، يهدف إلى استعراض الأطر النظرية والأدوات المنهجية التي استخدمها الباحثان للكشف عن تأثير الطبقات الاجتماعية في البنى اللغوية، وكيف تعكس المتغيرات اللغوية طبيعة الانتماء الاجتماعي للمتكلمين. كما تسعى إلى إبراز أوجه التشابه والاختلاف بين المقاربتين، وتوضيح القيمة المضافة للتحليل اللساني الاجتماعي في فهم قضايا الاندماج والانتماء داخل الجماعات اللغوية. وتخلص الدراسة إلى أهمية التمييز بين التفسيرات النظرية للصلة بين اللغة والمجتمع وبين النتائج التي تسندها المعطيات اللغوية والاجتماعية، بما يعزز الدقة في تحليل العلاقة بين الانتماء الاجتماعي والاستعمال اللغوي.

الكلمات المفتاحية:

الانتماء الاجتماعي، المتغير اللغوي، بازل برنشتاين، ويليام لابوف، اللسانيات الاجتماعية.

للاستشهاد/ Atıf için / For Citation: المحساني، عزيز. (٢٠٢٦).الانتماء الاجتماعي والمتغيرات اللغوية عند بازل برنشتاين ووليام لابوف مقاربة صوتية، معجمية، تركيبية. ضاد مجلة لسانيات العربية وآدابها. مج٧، ع ١٤، ٣٤٣- ٣٧٣ https://www.daadjournal.com/ /

Social Affiliation and Linguistic Variables in the Work of Basil Bernstein and William Labov: A Phonological Lexical, and Syntactic Approach

AZIZ ELMAHSANI
Ministry of Education, Morocco
E-Mail: azizelmahsani@yahoo.com
Orcid ID: 0009-0000-9848-9892

Research Article Received: 02.01.2026 Accepted: 24.10.2026 Published: 31.10.2026

Abstract:

This study examines the relationship between social affiliation and linguistic variables in the work of Basil Bernstein and William Labov from syntactic, lexical, and phonological perspectives. It is based on the hypothesis that social affiliation is an influential factor in shaping linguistic variables. The study adopts a descriptive, analytical, and comparative approach to reviewing the theoretical frameworks and methodological tools employed by the two scholars to investigate how social class influences linguistic structures and how linguistic variables reflect the nature of speakers' social affiliation. It also seeks to highlight the similarities and differences between the two approaches and to clarify the added value of sociolinguistic analysis in understanding issues of integration and belonging within linguistic communities. The study concludes that it is important to distinguish between theoretical interpretations of the relationship between language and society and findings supported by linguistic and social data, thereby promoting greater precision in analyzing the relationship between social affiliation and language use.

Keywords:

Social affiliation, linguistic variable, Basil Bernstein, William Labov, sociolinguistics.

تقديم:

إن سؤال العلاقة بين اللغة والمجتمع من الأسئلة الشائكة التي شغلت اللغويين وغيرهم من مجالات بحثية مختلفة، شأنها شأن العلاقة بين اللغة والفكر. إلا أن هذا السؤال حظي بأهمية خاصة في اللسانيات الحديثة على عكس سؤال العلاقة بين اللغة والفكر، الذي عد من الأبحاث المتجاوزة في الدرس اللساني الحديث. كما لا يخفى أن محاضرات دو سوسير (Ferdinand de Saussure) مثلت علامة فارقة في النقاش الدائر حول طبيعة هذه العلاقة، وقد أثارت آراؤه الجريئة حول فصل اللغة عن كل ما هو خارجي عنها حفيظة كثير من اللسانيين، لعل من أبرزهم تلميذه اللساني الفرنسي أنطوان مييه (Antoine Meillet)، إلا أن البحث اللساني عرف عودة قوية للدراسات المناصرة للأثر الاجتماعي في اللغة مع تيار ما يعرف باللسانيات الاجتماعية، الذي مثل نقلة نوعية في البحث اللساني الحديث.

لقد فتح هذا التيار البحث في موضوعات وقضايا جديدة في الدرس اللساني لم تولها الدراسات اللسانية البنيوية والتوليدية أهمية أو عناية. لذا كان هم اللسانيين الاجتماعيين وعلماء سوسيولوجيا اللغة وعلماء النفس الاجتماعي دراسة الأثر المترتب عن التراتبية أو الانتماء الاجتماعي في بنيات اللغة: الصوتية والتركيبية والصرفية والمعجمية، من أجل رصد المتغيرات اللغوية في علاقتها بالمتغيرات الاجتماعية. ولعل من أبرز الدراسات والأبحاث اللغوية الحديثة التي سلطت الضوء على علاقة التغير الاجتماعي بالمتغير اللغوي الدراسة التي أنجزها كل من الباحث الاجتماعي الإنجليزي بازل برينشتاين (Basil Brenstein)[1] حول مسألة العلاقة بين اللغة والطبقات الاجتماعية، والتي خصها بدراسة مستفيضة عن تأثير الانتماء الطبقي في بنية اللغة والتفكير عند الأطفال والتلاميذ من الطبقات الدنيا، وقد ضمنها كتابه «اللغة والطبقات الاجتماعيَّة (Langage et classes Sociales)، أو تلك التي أنجزها

(١) ازيل بينشتاين (١٩٢٤-٢٠٠٠): لغوي اجتماعي بريطاني كان له تأثير كبير على علم الاجتماع والتعليم واللغويات. ويشتهر بكتابه «الطبقة الرموز والتحكم» (Class, Codes and Control) (١٩٧١) بمجلداته الأربعة؛ حيث اكتشاف التمييز الحاصل بين الشفرات المقيدة والمحدّدة. وركز على دراسة الاختلافات في التنشئة الاجتماعية بين أطفال الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة في بريطانيا، معتبرًا اللغة مصدرًا وسبباً مهمين للتفاوت في النجاح الدراسي. (معجم اللغويات الاجتماعية: ٥١.)

اللساني الاجتماعي الأمريكي ويليام لابوف (William Labov)[1] من خلال بحثه للتغيرات اللسانية في علاقتها بالطبقة الاجتماعية، وخاصة علاقة التغير الصوتي في علاقته بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المتكلم، وذلك يبرز في دراسته الشهيرة عن اللغة الإنجليزية بمدينة نيويورك، وهي التي ضمنها كتابه «التنضيد الاجتماعي للغة الإنجليزية في نيويورك (The Social Stratification Of English In New York City)».

بناءً على ما سبق، تتمثل الإشكالية الرئيسة التي تسعى هذه الدراسة إلى مقاربتها في التساؤل: إلى أي حدٍّ يؤثر الانتماء الاجتماعي في المتغيّرات اللغوية (التركيبية، المعجمية، الصوتية) عند كلٍّ من بازل برنشتاين وويليام لابوف؟

ينبثق عن هذه الإشكالية عددٌ من الأسئلة الفرعية، من أبرزها:

– كيف عالج برنشتاين مسألة العلاقة بين الطبقات الاجتماعية والبنية اللغوية؟

– ما طبيعة المتغيّرات اللغوية التي ركز عليها لابوف في ضوء الانتماء الاجتماعي؟

– ما أوجه التشابه والاختلاف بين مقاربتي الباحثين؟

– وكيف ينعكس ذلك على فهم قضايا الانتماء والاندماج في المجتمعات المختلفة؟

تنطلق هذه الدراسة من فرضية مؤدّاها أن الانتماء الاجتماعي لدى برنشتاين ولابوف يشكل عاملا حاسما في تكوين المتغيرات اللغوية، وأن اختلاف السياقات الاجتماعية والثقافية يؤدي ضرورة إلى تفاوت في طبيعة هذه المتغيرات.

(١) ويليام لابوف (١٩٢٤-٢٠٢٤): يُعتبر لابوف شخصية بارزةً في اللُّغويّات الاجتماعية، فقد غيرت نتائج أطروحته للماجستير حول الحافز الاجتماعي للصوت في جزيرة مارثاز فينيارد (Martha's Vineyard)، والدكتوراه حول مدينة نيويورك (New York) نظرة اللسانيين وعلماء الاجتماع للسانيات الاجتماعية. لقد عرف لابوف بتطويره لمنهج تجريبي دقيق في دراسته للغة في مستواها الكمي. كما أنه وفي الوقت نفسه قام بإحياء المجالات اللغوية التاريخية، وعلم اللهجات بإبراز العلاقات بين التنوع اللغوي والمجموعة اللغوية الاجتماعية. كما تميز بنهجه في إبراز التغير والتنوع في السياقين اللغوي والاجتماعي، والتأثيرات البينية بينهما. (معجم اللغويات الاجتماعية: ٢٠١-٢٠٢)

تهدف الدراسة إلى تحليل الكيفية التي تناول بها كلٌّ من برنشتاين ولابوف العلاقة بين المتغيّر الاجتماعي والمتغيّرات اللغوية؛ التركيبي والمعجمي عند برنشتاين والصوتي لدى لابوف، والكشف عن أوجه التشابه والاختلاف بينهما، وإبراز أثر هذه المقاربات على فهم قضايا الانتماء والاندماج الاجتماعي لدى الطبقات والفئات المختلفة. وتنبع أهمية هذا البحث من قلة الدراسات العربية المقارنة التي تناولت هذين الباحثين معًا، فضلًا عن راهنية الموضوع في سياق النقاشات المعاصرة حول اللغة والهوية.

تعتمد الدراسة منهجًا وصفيًا تحليليًا مقارنًا يستند إلى تحليل نصوص ومفاهيم أساسية في أعمال برنشتاين ولابوف. وستنقسم إلى ثلاثة محاور رئيسة: الأول للإطار النظري والمفاهيمي، والثاني لمقاربة برنشتاين، والثالث لمقاربة لابوف، قبل أن يخلص المقال إلى قراءة مقارنة واستنتاج الخلاصات.

١- الانتماء الاجتماعي والمتغير اللغوي:

١-١- المتغير الاجتماعي والمتغير اللغوي:

إن البنى الاجتماعية والبنى اللغوية لا تكاد تتوقف عن التغير والتبدل، بشكل اطرادي مما يجعلهما في ارتباط سببي، يصبح بمقتضاه حدوث أي تغير لغوي هو نتيجة حتمية لمتغير اجتماعي يقابله ويرتبط به، بمعنى أن حدوث أي تغير اجتماعي لا بد وأن نجد صداه في اللغة وبنائها، وفق النظرة الأكثر جرأة واعتدادا بالقدرة المنهجية والتفسيرية للسانيات الاجتماعية. بحيث إن اللغة تصبح عاكسة لكل المتغيرات التي تطرأ على مستعمليها واستجابة آلية لها، وإن كانت درجة حدوث التغير بين بنى اللغة تختلف نسبة حدوثه بحسب مكونات اللغة وعناصرها: الصوتية، والصرفية، والمعجمية، والتركيبية، كما تختلف درجته من لغة إلى أخرى من حيث قابلية كل منها لذلك. وهذا الأمر لا تكاد تخلو منه لغة من اللغات الإنسانية، وتكون درجات حدوثه أكثر قوة وبروزا في المجتمعات المتمدنة، أو تلك التي في طور التمدن، وضمن المجتمعات التي تعرف حراكا اجتماعيا، وصراعا وتدافعا طبقيا أو فئويا بين مكوناتها، تسعى في خضمه كل طبقة للتعبير من خلال لغتها عن انتمائها ورقيها الاجتماعي، أو رفضها لهذا الانتماء، وبحثها عن شرعية أو انتماء لطبقة أو فئة اجتماعية أخرى. كما قد يكون نتيجة لتشكل طائفة أو نحلة دينية أو عقدية وسعيها للانعزال عن المجتمع

الذي تعيش فيه، أو لرسالة سماوية أو أرضية، أو تيار فكري أو سياسي، يحمل مشروعا إصلاحيا أو ثوريا، يُسعى من خلاله إلى التغيير. كما قد يكون بسبب انتماء عرقي أو جنسي أو عمري، كما قد نجد لدى الأمريكيين من ذوي الأصول الإفريقية، أو لدى المتحولين جنسيا أو الشباب. إن الربط بين المتغير اللغوي والمتغير الاجتماعي كالطبقة الاجتماعية مثلا، قد يفسر في أحيان كثيرة على أنه نتيجة للتنوع الاجتماعي الطبقي، إلا أن هذه الملاحظة لا يمكن اعتبارها دائما صحيحة، بل «قابلة للنقاش، فليس ضروريا أن يربط كل تفسير للمتغيرات اللغوية بالمتغيرات الاجتماعية، ولا أحد (من الدارسين) زعم أنه باستطاعته فعل ذلك»(١)، وهذا يعد من جملة الانتقادات الموجهة للسانيات الاجتماعية التي تجعل كل تغير لغوي نتيجة لمتغير اجتماعي، وتمنحه قدرة تفسيرية مطلقة.

إن مبدأ التغير هو السمة الأبرز لكل نشاط أو ممارسة إنسانية، ولما كانت اللغة ممارسة إنسانية ينجزها الإنسان في معتاده اليومي من خلال الفعل الكلامي، كانت اللغة دائمة التغير والتطور، وهو الأمر الذي أكد عليه إدوارد سابير بقوله: «الكل يعرف أن اللغة متغيرة»(٢) ، وبذلك فإن «عدم التغير المطلق لا وجود له. فكل جزء من اللغة يخضع للتغير. ويعود لكل فترة شيء من التطور الملموس. وقد يختلف التطور في سرعته وشدته، ولكن هذا لا يؤثر في صحة مبدأ التغير»(٣)، بل يؤكده ويجعل اللغة في ديمومة وتغير مستمرين، في صورة شبيهة بالنهر الجاري الذي قد يظهر سطحه للناظر على أنه ساكن، لكن وفي داخله تعمل حركة لا تكاد تتوقف، تؤثر فيها عوامل عدة محيطة به، لأنه بتوقفه فساد عنصره، وفي جريانه طيب مشربه، والماء إن جرى طاب وإن لم يجر لم يطب.

إن التغير اللغوي في مجمله يتم في العادة في محورين: محور خطي متصل تراكمي يختص بدراسته علم اللغة الدايكروني، يتم من خلال دراسة العلاقات بين عناصر متعاقبة، يحل كل عنصر منها محل العنصر الآخر بمرور الزمن، ومحور ثابت منقطع استبدالي يختص بدراسته علم اللغة السنكروني، والقائم على دراسة العلاقة

(١) دليل السوسيولسانيات: ١١٧.
(٢) دليل السوسيولسانيات: ١٠٥.
(٣) علم اللغة العام: ١٦٣.

بين العناصر الموجودة في حالة لغوية قارة وثابتة، وتتجه في العادة إلى دراسة البنى اللغوية في ذاتها ولذاتها، باعتبارها تغيرا مفصولا عن جملة العوامل الخارجية، ولقد كان هذا جوهر النظرية اللسانية عند دو سوسير، ومن جاء بعده من اللسانيين الوصفيين البنائيين أو التوليديين.

إن اللغات الإنسانية في تغير وتطور مستمرين لا يكادان يتوقفان، إلى جانب هذا التغير الزمني هناك تغير آخر تزامني، يمكن ملاحظته وتحديده باستمرار في أي لغة، بتعايش مجموعة من الصيغ للدلالة نفسها(١)، أو وجود دلالات متعددة لصيغة واحدة. فهذا النوع من التغيرات للبنى اللغوية، كما أنها قد تكون تغيرات نتيجة لواقع جغرافي، حيث تنطق اللغة نفسها بأشكال مختلفة من منطقة جغرافية إلى أخرى، مثلا اللغة العربية في دول الخليج والمغرب، أو يكون لها معجم مختلف في مناطق مختلفة في الإقليم أو البلد نفسه، مثلا الأمازيغيات الثلاث في المغرب. وقد تكون التغيرات عاكسة للبنيات الاجتماعية السائدة في الإقليم الواحد، من خلال وجود متغيرات لغوية تعكس التنضيد والفروق الاجتماعية بين متكلمي اللغة نفسها. وهذا الأمر يمكن ملاحظته في اللغة المستعملة بين سكان ضواحي المدن والأحياء الراقية، أو بين سكان المدينة والبادية.

إن هناك توجها شائعا في البحث السوسيولساني يركز على التغير اللغوي، ويعتبر بعض كبار اللسانيين الاجتماعيين أن المهمة الرئيسية والأساسية للسوسيولسانيات هي التنبؤ بالتغير اللغوي(٢). بل إن هناك اتجاها كبيرا ضمن هذا التيار يرتكز أساسا على دراسة المتغيرات اللغوية في علاقتها بالبنى الاجتماعية يسمى اللسانيات الاجتماعية المتغيرة Sociolinguistique Variationniste. يرجع الفضل في تأسيسه إلى العالم اللغوي الأمريكي (ويليام لابوف)، ويُعرف هذا الاتجاه بوصفه منهجا يرصد التغير اللغوي، وهو بذلك يتعارض مع المقاربة التوليدية التحويلية التي تجعل هدفها رصد كفاءة «المتكلم/السامع» المثالي في جماعة متجانسة لغويا، وذلك بالاعتماد على الأحكام القاعدية. ولما كانت اللسانيات الاجتماعية تهتم باللغة كما تتكلم بها جماعة لسانية، فإنها لا تسلم من الأحكام القاعدية، وهي بذلك تحصر عملها في رصد

(1) La Sociolinguistique, 2017: 61.

(٢) دليل السوسيولسانيات: ٢٤.

التغير اللغوي ودراسته في علاقته بالبناء الاجتماعي[1]، باعتباره معبرا لاستخدامات المتكلمين للغة ولمواقفهم منها.

لقد وصفت اللسانيات الاجتماعية المتغيرة كل أشكال التغيرات التي لم تكن منحدرة من أصل فردي، وبينت أنه يوجد تغير من أصل اجتماعي يتجلى في تنضيد اجتماعي لمتغير من المتغيرات اللسانية، ومتغير أسلوبي يظهر حالة ظهور تغيرات في مدونات الخطاب يقوم به المتكلم الواحد. يعتبر التغير الاجتماعي/اللساني الوحدة التحليلية للسانيات الاجتماعية، وهو عنصر لساني يتغير بالمصاحبة مع متغير غير لساني، مثل: الطبقة الاجتماعية، والجنس، والسن، ومدونة الخطاب. ولدراسة متغير من المتغيرات اللغوية والتحقق من هويته، فإن الأمر يتطلب دراسة مجموعة المتغيرات المرتبطة به، وبعد ذلك يعمل على إبراز القيود غير اللسانية التي تؤثر في اختيار هذه المتغيرات. ومنه، فإن التحليل اللساني الاجتماعي لا يختزل في دراسة العوامل غير اللسانية، والسبب أن اللغة نسق متغير في أصلها، وبذلك فإن دراسة المتغير اللساني تكون لتحديد المساهمة التي يستطيع أن يحملها لدراسة بنى اللغة، ودراسة المتغيرات اللسانية. إن (ويليام لابوف) قد اقترح شكلا للقواعد المتغيرة، من أجل وصف البناء الاجتماعي للتباين اللساني من جهة، ولإدخال قواعد التغير إلى القواعد من جهة

(١) تتخذ كلمة (قواعد) في الدراسة اللسانية مفهوما مختلفا عما هي عليه في الدراسة اللغوية التقليدية، فإن كانت تعني في الدرس التقليدي القواعد التي تشرع الاستعمال اللغوي وتحافظ على سلامته وفق مقاييس معيارية ثابتة، فإنها في اللسانيات الحديثة تعني وصف اللغة من حيث هي واقع قائم بذاته وصفا موضوعيا. فمع نشوء اللسانيات وتطورها لم تعد الكلمة تعني القوانين التي يجب اتباعها للتعبير وللكتابة بحسب الأصول المراعاة، بل اتخذت معنى دراسة اللغة دراسة علمية موضوعية. وفي اللسانيات التوليدية والتحويلية تعني كلمة القواعد الأولية التي بإمكانها توليد جمل اللغة، أي وصف جمل اللغة وتعدادها بصورة بينة وجلية. ومن المعلوم أن اللسانيات التوليدية التحويلية تقوم على جملة من القواعد التي تشكل تنظيما يقوم على ثلاث مكونات أساسية (صوتي، تركيبي، دلالي) يمثل المكون التركيبي فيها المكون الأساس الذي يتناول البنية العميقة للجمل، ويحدد عناصرها المؤلفة، في حين أن المكونين الصوتي والدلالي هما مكونان تفسيريان. كما يقوم هذا المكون على مكونين هما: المكون الأساسي والمكون التحويلي. مما يسمح للمتكلم بإنتاج عدد غير متناه من البنى التركيبية التي تحمل تمثلا دلاليا وتمثيلا صوتيا. وبذلك تكون القواعد التوليدية التحويلية تهتم بأولية اللغة التي تتيح للإنسان أن ينتج جملا، هذه العملية تكون مرتبطة بالقواعد التوليدية القائمة ضمن الكفاية اللغوية. (الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية): ٧-١٣.)

أخرى. وعلى العكس من النحو التوليدي الذي اقترح قواعد تصنيفية تبويبية، فإن القواعد المتغيرة قواعد تقوم على التحديد الكمي؛ فهي بذلك تسمح بتحديد السياقات البنيوية سواء كانت لسانية أم غير لسانية، وتدمج المتغير اللساني بشكلانية قواعد النحو، مستندة في تحليلها على معطيات تم جمعها بطريقة منهجية[١]، وهذا ما يميزها عن اللسانيات البنيوية التي تدرس المتغير اللساني في معزل عن سياقه الاجتماعي.

إن اللسانيات الاجتماعية المتغيرة جددت دراسة المتغير اللساني، وطورت مناهج الاستقصاء وأدوات التحليل، وبفضل الملاحظة المباشرة للتغيرات اللسانية، أمكن البحث عن إشارات التغير اللساني قبل أن يظهر في وعي المتكلمين. لقد سمحت الأبحاث التي قامت بها بعزل المجموعات الاجتماعية المسئولة عن انتشار التجديد اللساني، كما سمحت بوصف اتجاه التغير اللساني، وتحديد علاقته بباقي المتغيرات، في اتجاه مغاير لاهتمامات وانشغالات اللسانيات الاجتماعية التفاعلية Sociolinguistique interactionnelle[٢]. إلا أن المشكل الذي قد يعترض الباحث اللساني الاجتماعي في دراسته لهذه التغيرات اللغوية الحادثة ليس في وجودها، إنما في الإمساك بالأثر الحادث والعلاقة الموجودة بين المتغيرين اللغوي والاجتماعي، وتحديدهما في الوقت نفسه. وهو الأمر الذي يقر به لوي جون كالفي (Louis-Jean Calvet) من خلال تأكيده على أن علم اللغة الاجتماعي قد واجه في بعض الأحيان صعوبة في الإمساك بطرفي هذا الكل، المتغير الاجتماعي من جهة والمتغير اللغوي من جهة أخرى[٣]. إلا أن هذه الصعوبة لم تمنع المشتغلين باللسانيات الاجتماعية من استعمال مختلف الوسائل والطرائق المستمدة من مجالات وحقول علمية مختلفة من أجل تجاوز هذا العائق الموضوعي، وتقديم تفسير أكثر شمولية ودقة لأثر البنى الاجتماعية وتغيرها على البنى اللغوية وتغيرها.

إن دراسة اللغة من خلفية اجتماعية لم يكن حكرا على اللسانيات الاجتماعية لوحدها، بل إنها كانت مدار أبحاث مستفيضة لمجموعة من علماء الاجتماع، وعلماء النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع التربوي. لكنها لم تكن بالقدر نفسه الذي ساهمت فيه الأولى، والتي ساهمت بأعمال وأبحاث مهمة، أثرت حقل اللسانيات الاجتماعية

(١) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان: ١٣٤-١٣٥.

(٢) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان: ١٣٦.

(3) La Sociolinguistique: 61.

منذ تأسيسه. ولعل من أبرز الاتجاهات التي اختصت بدراسة اللغة من رؤية اجتماعية خالصة، نجد سوسيولوجيا اللغة أو ما يطلق عليه «علم اجتماع اللغة». لعل من أوجز التعريفات المقدمة لعلم اللغة الاجتماعي هو التعريف الذي قدمه ريتشارد هدسون (Richard Hudson): «على أنه دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع»[1]، بذلك فإن محور الاهتمام الرئيس لهذا العلم هو اللغة أساسا، على عكس علم الاجتماع اللغوي الذي يتركز محور اهتمامه على المجتمع، فيكون همه هو: دراسة المجتمع في علاقته باللغة، وعليه فإن «الاختلاف بين علم اللغة الاجتماعي وعلم اجتماع اللغة ليس اختلافا في العناصر، وإنما في محور الاهتمام، ويستند ذلك إلى الأهمية التي يوليها الدارس للغة أم المجتمع، وإلى مدى مهارته في تحليل البنية اللغوية أو الاجتماعية»[2]. إن المهمة التي يضطلع بها علم اللغة الاجتماعي هي دراسته للبنيات اللغوية أو لتطور اللغة في سياقها الاجتماعي المشكل من طرف الجماعة اللغوية، بذلك فأهميته تكمن أساسا في قدرته على إيضاح طبيعة اللغة بصفة عامة، وإيضاح خصائص محددة للغة بعينها.

إن أهمية هذه الحقائق المتوصل إليها في دراسة اللغة تسمح للمشتغلين في هذا الحقل العلمي بفهم أفضل وأوضح للمجتمع المستعمل للغة قيد الدرس. ولعل هذه الوظيفة المحددة التي يضطلع بها تجعله يقع في نوع من التطابق والتداخل مع علم الاجتماع اللغوي، فهذا الأخير يعنى أكثر بعلم اللغة الاجتماعي الكلي بدلا من علم اللغة الاجتماعي الجزئي. «بشكل عام، ففي حين أن علم اللغة الاجتماعي (الجزئي Micro) يأخذ اللغة نقطة انطلاق له، ويعتمد على المجتمع كخلفية أساسية وبناء تحليلي بهدف فهم اللغة؛ فإن علم اجتماع اللغة (الكلي Macro) يأخذ المجتمع نقطة انطلاق، ويحلل تطورات اللغة بهدف إلقاء الضوء على طبيعة المجتمع. إلا أن هناك العديد من الحالات يظهر فيها هذان النهجان كوجهين لعملة واحدة»[3]. إن اعتبار اللغة موضوعا للدراسة تأثيرا وتأثرا من خلفيات متعددة كان مجالا خصبا للحقول السابقة، خاصة اللسانيات الاجتماعية، لكن المنطلقات والخلفيات والنتائج بالحد الذي كانت فيه متشابهة، كانت في الوقت نفسه متباينة، مما أثر في جملة الدراسات التي تدرس

(١) علم اللغة الاجتماعي: ١٢.
(٢) علم اللغة الاجتماعي: ١٧.
(٣) معجم اللغويات الاجتماعية: ٣٦٠.

المتغير اللغوي في علاقته بالبنيات الاجتماعية، كانت في جانب مهم منها انتقادات للنتائج المتوصل إليها فيما يتعلق بهذه العلاقة، ولعل ما وجهه ويليام لابوف لبازل برنشتاين فيما يتعلق باشتغاله حول مسألة العلاقة بين اللغة والطبقات الاجتماعيّة، والتي خصها لتأثير الانتماء الطبقي في بنية اللغة والتفكير عند الأطفال والتلاميذ من الطبقات الدنيا، يمثل جزءا من هذا التراكم الذي أثر في مجال البحث اللساني ذي الخلفية الاجتماعية، هذا بالإضافة لأعمالهما التي تمثل إضافة نوعية للممارسة اللسانية الاجتماعية منذ تأسيسها، وإلى حدود اللحظة الراهنة.

١-٢- الانتماء الاجتماعي والبنيات اللغوية:

إن الانتماء الاجتماعي محدد أساسي للتغيرات اللغوية في التقليد السوسيولساني، فالفروق والتمايزات الاجتماعية للمجتمعات الإنسانية تنعكس في اللغات، في تغيرات البنى الاجتماعية، وهذا يظهر بشكل جلي من خلال ممارستنا اللغوية اليومية، فلا تكاد تخطئ أذن السامع المتمرس في لغته الأم تلك التغيرات والتبديلات التي تطرأ على مختلف البنيات اللغوية للمتكلمين الذين ينتمون إلى لغات أو لهجات أخر، ولا تمثل اللغة أو اللهجة المتحدث بها لغتهم الأم. وهو ما قد يظهر بجلاء بين متحدثي الدوارج المغربية من مختلف المناطق، أو بين أولئك الذين لغتهم الأم الأمازيغية، وحديث عهد باستعمال أحد دوارج المغربية، أو بين ساكنة المدن المغربية تلك التي عرفت هجرات كبيرة من البوادي والقرى المغربية المحيطة بها لعوامل اقتصادية، مثلا: الدار البيضاء، وتلك التي تركزت فيها نخب بيوقراطية نتيجة لتوطين الإدارات والدوائر الرسمية منذ الحماية كما هو الحال في العاصمة المغربية الرباط. ومن أبرز التغيرات الصوتية التي نبصرها نطق حرف الراء عند ساكنة فاس، أو حرف الجيم في المنطقة الشرقية، أو قد تكون تركيبية بمخاطبة المذكر بصيغة المؤنث في بعض مناطق المغرب، أو معجمية باستعمال بدلائل معجمية أجنبية بدلا عن تلك ذات الأصل العربي أو الأمازيغي، مثل ما قد قد نجده في مناطق الشمال المغربي بالنسبة للغة الإسبانية، أو المناطق الشرقية أو الوسطى أو الغربية بالنسبة للفرنسية.

إن دراسة المستويات اللغوية بنوع من الدقة سواء بين الاتجاهات اللسانية الوصفية، أو في علاقتها بالانتماءات الاجتماعية كما هو الأمر بالنسبة لعلم اللغة الاجتماعي، يرجع الفضل فيه لدو سوسير من خلال التمايز الذي أنجزه في تعريفه للكلام تعريفا

لسانيا، ورفعا للخلط الحاصل بينه وبين اللغة واللسان، من خلال وضعه للمصطلحات اللسانية الثلاثة لتحديد الظاهرة اللغوية: اللسان Langue واللغة Langage والكلام Parole. وقد كان لهذا التحديد أهمية خاصة في الدرس اللساني المعاصر، ذلك أن اللسان إذا كان عنده يدل على النظام العام للغة، ويضم كل ما يتعلق بكلام البشر، فإنه بالمقابل يشتمل على ظاهرتين مختلفتين، هما: اللغة والكلام. اللغة عند (دو سوسير) هي الجانب الاجتماعي للسان، في مقابل الكلام الذي يمثل الجانب الفردي له، وتقع خارج الفرد الذي لا يستطيع أبدا أن يخلقها أو يحورها بمفرده. فلا وجود للغة إلا بنوع من الاتفاق يتوصل إليه أعضاء مجتمع معين، وعلى الفرد أن يقضي فترة معينة يتعلم فيها وظيفتها، وهي شيء مميز جدا. فإذا فقد المرء قدرته على الكلام، ظل محتفظا بها. ثم إن اللغة في نظره واقعة اجتماعية وخصوصياتها ليست مجردة، بل توجد بالفعل في عقول المتكلمين بها. وبصيغة أخرى، فهي مجموع كلي متكامل كامن ليس في عقل واحد، بل في عقول الجماعة اللغوية، وفي عقول جميع الأفراد الناطقين بلسان معين. وبذلك تفرض اللغة نفسها على المتكلمين بها، بحيث لا يمكن لأي فرد الحياد عن نظامها العام. في حين أن الكلام فعل فردي واع وعقلي ومقصود، وفعل يقوم على استعمال الفرد للغة بصورة سلبية، دون الحاجة لتأمل سابق. كما أن الكلام فعل مادي ملموس، ونشاط شخصي مراقب، يمكن ملاحظته من خلال كلام الأفراد، وهو مطابق لمفهوم «الأداء اللغوي» Performance linguistique عند(تشومسكي). وهو بتعريف (دو سوسير) مجموع ما يقوله الأفراد، ويشتمل على أنساق فردية خاضعة لإرادة المتكلمين، وأفعال فونولوجية إرادية لتنفيذ هذه الأنساق[1]. لذلك فإن الكلام كان موضوعا للدراسة في اللسانيات الاجتماعية كما هو مع لابوف في مستواها الصوتي، وعلم الاجتماع التربوي كما هو عند بازل في مستوييه التركيبي والمعجمي.

إن اللغة وإن كانت ممارسة جماعية متعالية عن الأفراد، إلا أن مستوياتها تتعدد وتتنوع تبعا للناطقين بها، بحسب تكوينهم الثقافي وانتماءاتهم الاجتماعية. إلا أن الممارسة اللغوية للمتكلمين تحدث تغيرا في بنياتها، إن كان هذا الأمر قد يخفى على متكلمي اللغة فهو لا يخفى على عالم اللغة، فهو يتبينه من خلال نطق الأصوات،

(١) ينظر في هذا السياق التعاريف التي خص بها دو سوسير اللسان واللغة والكلام في محاضراته. (علم اللغة العام: ٢٦-٣٨)

ونوع المفردات والتراكيب المستعملة، وهو ما يؤكد أن التغيير في المستويات اللغوية واقع بين كل مجموعة لغوية، نتاجا وفرزا للممارسة اللغوية الاجتماعية لأفرادها التي تعكس في جانب مهم انتماءهم الاجتماعي(١). إن هذه التغيرات الناشئة في أي لغة، إنما هي نتاج طبيعي للمحيط الاجتماعي الذي تستعمل فيه، والذي يتدخل فيه فاعلون كثر، بحيث تصدر عنها تنوعات لهجية مثلا لغة الضواحي في باريز، أو لغوية داخل اللغة الواحدة، مثلا الإنجليزية البريطانية أو الأمريكية أو الأسترالية. فقد تضع كل مجموعة من داخل اللغة الأم لهجتها الخاصة، بحيث يتولد شعور خاص عند كل فرد من أفرادها «بأن له في استعمال هذه اللهجة ذوقا خاصا متميزا من الناحية الصوتية ومن نواحي الصرف والتركيب والدلالة يعرف به، ويسهل من خلاله تمييزه ونسبته إلى جماعته الجزئية الخاصة»(٢). إن ما قد يُنشئ المستويات اللغوية هو تدخل المستعملين لها، فمما هو معروف أن اللغة تتخذ موقفا محايدا إزاء الطبقات والفئات الاجتماعية، وهذا عكس مستعمليها فهم لا يكونون بحيادية اللغة نفسها. إذ تسعى كل فئة أو مجموعة داخل المجتمع الواحد لاستعمال اللغة التي تلبي مصلحتها الخاصة، ومساعي أفرادها(٣). إن هذه التغيرات التي تصيب اللغة وتتولد عنها مستويات لغوية داخل اللغة لواحدة، والتي تعكس مجموع التطلعات والانشغالات والظروف الاجتماعية المحيطة والحاكمة لأفرادها، تحدث تغيرات تصيب مكونات اللغة وبنيتها، لذلك يرى أنطوان مييه « أن من الواجب أن نحدد مع أي بنية اجتماعية تتفق بنية لغوية معينة كما أنه من الواجب أن نحدد كيف تتمثل. تغيرات البنية الاجتماعية، بطريقة عامة في تغييرات البنية اللغوية»(٤)، وهذا جوهر عمل اللسانيات الاجتماعية ورهانها الذي راهنت عليها منذ تأسيسها على يد روادها، وخاصة مع الاتجاه التغييري.

إن بنيات اللغة كانت بلا شك مدار الدراسة اللسانية الاجتماعية ومحطة انطلاقها، أو بعض الأعمال التي حاولت رصد الأثر الاجتماعي من جوانب متعددة نفسية أو تربوية أو اقتصادية، إلخ، على اللغة وبنياتها. فالتغير الصوتي أو الصرفي أو المعجمي أو التركيبي في أساسه ما هو سوى انعكاس لعوامل خارجية عنه - لأنه وكما سبق القول فاللغة محايدة بعكس مستعملها – يعبر بها عن متغيرات اجتماعية، كما أنه

(١) علم اللغة الاجتماعي عند العرب: ١٦٥.
(٢) اللغة والمجتمع: رأي ومنهج: ٣٦.
(٣) علم اللغة الاجتماعي عند العرب: ١٦٧.
(٤) اللغة والمجتمع: رأي ومنهج: ٣٨.

يعكس البنى والأنماط والتمثلات الاجتماعية التي كان لها أثر في إحداثه، كما أنه في الوقت نفسه يعكس الانتماءات الاجتماعية لمتحكم في التغير اللغوي، والتي تعتبر عاملا رئيسيا في مجمل التغيرات التي تصيب بنية اللغة.

٢- الانتماء الاجتماعي والمتغير اللغوي عند بازل برنشتاين ووبليام لابوف:

٢-١- المتغير التركيبي المعجمي والطبقات الاجتماعية عند بازل برنشتاين:

مع مطلع الستينات حينما كانت اللسانيات الاجتماعية في الولايات المتحدة تشق طريقها على يد ثلة من كبار اللسانيين الأمريكيين، وقبل هذه الفترة كان علماء الاجتماع قد بدأوا يولون اهتماما قليلا للسانيات كأداة تحليلية[١]. بدأ بازل برنشتاين بدراسة العلاقات الموجودة بين البنى اللغوية والطبقات الاجتماعية. لذلك فقد أقام مشروعه النظري على تراث معرفي ومنهجي من خلال خلق توليفة بين تيارات ونظرية عدة، يجمعها مشترك واحد هو تساؤلها حول الطبيعة الاجتماعية للغة. فاستلهم من النظرية الاجتماعية أدواتها في تحليل البنى الرمزية والعلاقات الاجتماعية، خصوصا لدى روادها الأوائل ماركس ودوركايم، كما استعان بنتائج وأبحاث كل من نظرية البناء الاجتماعي حول الذات عند ج. ه. ميد، وأخذ من اللسانيات منجز أعمال الأنثروبولوجيا الثقافية لدى كل من فرانز بواس وسابير وورف، ومن الفلسفة الأشكال الرمزية لدى إرنست كاسيرر، ومن علم النفس آليات اشتغال اللغة في التطور المعرفي من نظريتي ليف فيغوتسكي وألكسندر لوريا[٢]. إن مشروع برنشتاين انطلق من قناعة أساسية تقوم على ضرورة التضامن بين علم الاجتماع واللسانيات لتقديم منهج تفسيري لطبيعة العلاقات الاجتماعية. بذلك كان بازل برنشتاين الإخصائي التربوي من الأوائل الذين أخذوا بعين الاعتبار كلا من المنتجات اللغوية الفعلية والوضع الاجتماعي للمتحدثين.

انطلق بازل برنشتاين في عمله من ملاحظة محددة وهي أن أطفال الطبقة العاملة

---

(١) دليل السوسيولسانيات: ٤٩.

(2) Langage et classes sociales, de B. Bernstein: https://mathilde.dhenin.fr/wp-content/uploads/dhenin/PhiloPistes/Langage_domination/Langage%20et%20classes%20sociales.pdf

يسجلون معدلات رسوب مدرسي أعلى بكثير مقارنة بأطفال الطبقات الميسورة. قام بعد ذلك بتحليل «المنتجات اللغوية» للأطفال، وحدد نظامين لغويين: الشفرة المحدودة: وهو النظام الوحيد الذي يتقنه أطفال الأوساط المحرومة. والشفرة الموسعة: وهو نظام يتقنه أطفال الطبقات الميسورة الذين يمتلكون أيضا القدرة على استخدام النظام الأول. وللتأكد من صحة ملاحظاته وفرضياته فيما يخص العلاقة بين البنى اللغوية والانتماء الاجتماعي، وأثر الانتماء الاجتماعي للأطفال في تفوقهم الدراسي. قام بازل بإجراء تجربة على عينة من الأطفال تنتمي لطبقتين اجتماعيتين مختلفتين: طبقة ميسورة، وطبقة محرومة. وذلك لتوضيح الفرق بين هذين النظامين السابقين. التجربة طلب فيها من الأطفال وصف قصة مصورة بلا كلام. على أن يقدم الأطفال المختبرون نصا مكتوبا يعبر عن أحداث القصة المصورة، فكانت نتائج التجربة على الشكل الآتي:

ـ أن أطفال الأوساط المحرومة كتبوا نصا يتقيد بشدة بالصور دون أي توظيف للخيال أو وجود لرابط دلالي أو سببي بينها، بل عملهم يقوم على تحويل الصور إلى كلمات وعبارات: يلعبون كرة القدم، يركل الكرة، تكسر النافذة...»، بينما قدم أطفال الطبقات الميسورة نصا مستقلا بذاته تترابط عباراته وكلماته، ويتضمن توظيفا للخيال وربطا دلاليا وسببيا بينها: الأطفال يلعبون كرة القدم، أحدهم يركل الكرة، فتعبر النافذة وتكسر زجاجها...»[1].

إن النتائج المتوصل إليها تكشف أن المنتج اللغوي لأطفال الوسط المحروم يتسم بمحدودية وفقر معجمي، أما من حيث البنية التركيبية فهو يتميز بجمل قصيرة لا يربطها رابط دلالي ولا منطقي، وتخلو من أي تراكيب فرعية. وهو ما قد يعيق وظائف اتصالهم بالعالم والتعرف عليه والتعبير عنه ونقله، لذا فإن رؤيتهم للعالم لا بد من أن تكون قاصرة مما يؤثر على تعلمهم وإدراكهم له. وهذا بخلاف أطفال الطبقة الميسورة. وهذا ما يتعرض له لوي كالفِي في تناوله لتصور بازل برنشتاين للاختلاف بين الشفرة المحدودة والشفرة الموسعة، مشيرا إلى أن الشفرة المحدودة تتميز، وفق هذا التصور، بمحدودية المعجم وقصر الجمل وغياب التراكيب التابعة. ويربط برنشتاين، في نظره، هذه الخصائص بالسياقات الاجتماعية والتنشئة الأسرية، كما يفترض أن لها انعكاسات على التعلم ورؤية العالم. وفي المقابل، يعرض كالفي نمطًا من التعبير أكثر استقلالًا

(1) La Sociolinguistique, 2017: 9

عن السياق المشترك لدى أطفال الأوساط الميسورة، مستشهدًا بتجربة وصف شريط مصور صامت. غير أن هذه الأطروحة تعرضت لانتقادات، ولا سيما من وليام لابوف، الذي اعترض على التقابل الثنائي بين الشفرتين وعلى بعض الأسس اللسانية التي استند إليها برنشتاين في وصف الشفرتين[1].

إن التباين الاجتماعي بين فئات المحرومة وتلك الميسورة عند برنشتاين في تجربته على الوسط المدرسي تكشف بلا شك عن هوة سحيقة تفصل بين الفئتين، وعن ضعف لغوي كبير لدى الفئات الدنيا التي تتشكل من الطبقة العمالية أساسا. فالقصور اللغوي الذي سماه «إعاقة لغوية» في الحقيقة يكشف عن قصور معرفي وسلوكي ولغوي يصيب هذه الفئات الأخيرة. ولقد كانت التجربة قائمة أساسا على رصد البنى اللغوية المنتجة من طرف المتعلمين واستعمالها، خصوصا في مستوييها التركيبي والمعجمي، لذلك كان هناك تباين واضح بين أطفال الطبقتين، مما يعتبر من منظور برنشتاين سببا مباشرا في الإخفاق أو التفوق الدراسي.

إن الأثر الاجتماعي في البنى اللغوية التركيبية والمعجمية يبدو جليا لدى كل من الفئتين، وهذا الأمر لا يمكن إلا بالنظر للتمايز الذي وضعه برنشتاين بين اللغتين الشعبية والشكلية، فالفئات الدنيا تستعمل اللغة الشعبية، في حين أن الفئات الوسطى أو العليا تستعمل اللغة الشكلية في تفاوت بينهما. يستعرض برنشتاين بشكل واسع ومفصل التباين بين اللغة العائلية «الشفوية» لغة الشارع والبيت، واللغة الشكلية «المعيار» لغة المدرسة، ويحدد خصائص اللغة العائلية بالسمات الآتية:

عباراتها قصيرة وقواعدها بسيطة، وهي في الغالب عبارات غير كاملة المعنى، تتميز بضعف البنية العامة، وتميل إلى النشاط المجسد واعتماد على الإشارة.

استخدامها يبرز فيه تكرار الكلمات وأدوات الربط مثل: فإن، إن، وهكذا.

فيها استخدام متكرر للأسئلة والأوامر المختصرة.

فيها استخدام محدود للصفات والظروف.

فيها استخدام محدود للضمائر غير الشخصية مثل: هو، هي.

(١) La Sociolinguistique ((())), ٢٠١٧: ٩

التأكيدات فيها تأخذ شكل الأسئلة الغامضة، وعبارات المشاركة الوجدانية مثل: تصور هذا؟ هذا طبيعي أليس كذلك؟ ألا تعتقد ذلك أبدا؟

تفرز خلطا كبيرا بين الأسباب والنتائج في إعطاء تأكيدات نموذجية مثل: افعل كما أقول لك، لن تستطيع الخروج، أطرح ذلك، ابتعد عن ذلك.

فيها استخدام واسع ومتواتر لبعض الكلمات الاصطلاحية.

يعاني الاستخدام الرمزي فيها من الغموض والعمومية.

المعيار الشخصي فيها مضمر في بنية العبارة، ومن المتفق عليه أن ذلك يؤدي إلى تحديد شكل اللغة.

وعلى خلاف السمات الخاصة باللغة العائلية فإن اللغة الشكلية (المعيار) تتميز بما يلي:

تأخذ العبارات فيها مكانها في سياق محدد وفي إطار نظام قواعدي دقيق.

تتوازن التحولات المنطقية فيها مع مستوى استخدام المعطيات القواعدية المعتمدة. وعلى الخصوص فيما يتعلق بجملة التغيرات الصرفية والعبارات النسبية.

تواتر فيها استخدام الحروف الدالة على روابط منطقية وروابط زمنية أو مكانية.

تعرف الاستخدام المتكرر للضمائر غير الشخصية مثل: هو، هي.

فيها اصطفاء مميز للصفات والظروف.

فيها وضوح الإطار المرجعي الشخصي، وذلك عبر البنى والعلاقات الداخلية للعبارة، أي وضوح السمة الشخصية.

يضفي فيها التعبير الرمزي المشروط بالصيغة اللغوية على ما يقال سمة انفعالية محدده.

يؤدي استخدام هذه اللغة إلى وجود إمكانيات واسعة لتحقيق بنية هرمية معقدة تساعد على تنظيم التجربة الإنسانية[1].

(١) اللغة والطبقة والانتماء الاجتماعي، رؤية نقدية في طروحات بازيل برينشتاين: https://:watfa. net/archives/١٢٢٨

إن برنشتاين في نظريته وضع ثنائية تقابلية أداة تحليلية للعلاقة الموجودة بين الانتماء الاجتماعي والتحصيل الدراسي، فهو يميز بين لغة الفئات المحرومة ولغة الفئات الميسورة، ويطلق على اللغة الأولى مصطلح اللغة المحدودة، وهي لغة حسية حركية تفتقر إلى أدوات الربط وينحدر فيها مستوى التعبير الرمزي المجرد، وتتداخل فيها المقدمات والنتائج كما تسودها عبارات طفيلية مثل: أليس كذلك؟ كذلك؟ أتعرف؟، الخ. أما اللغة الثانية فهي اللغة التي يطلق عليها اللغة المتقنة، فتتميز بدرجة عليا من الرمزية والتجريد، واستخدام الضمائر، والتسلسل في استخدام الأزمنة: حاضر وماضي ومستقبل، وأدوات الربط[1]. ويرجع برنشتاين هذا التباين بين لغة الفئات المحرومة والميسورة إلى تباين طبيعة الحياة الاجتماعية بين طبقتين[2].

في هذا السياق تشير الملاحظة أن معلمي اللغات الأجنبية أكثر قدرة من غيرهم على فهم ما يريده طلابهم الأجانب، حيث يتم التفاهم بينهم وبين طلابهم عبر كلمات بسيطة جدا وتلميحات عابرة، ويعود ذلك إلى طبيعة الحياة المشتركة التي تجعل الفرد قادرا على فهم وتفسير ما يدور في إطار الجماعة التي يعيش فيها، دون بذل كثير من الجهد في الحوار أو التفكير. وبالتالي فإن هذا النمط من الحياة المشتركة لا يساعد على عملية نمو اللغة أو التفكير عند الأطفال. وعلى خلاف ذلك كله فإن حياة الفئات الميسورة تتميز بدرجة عليا من الفردية والنزعة إلى الاستقلال، وهذا من شأنه أن يساعد على نمو اللغة والتفكير عند الأطفال هذه الطبقة[3].

في أبحاثه - التي خضعت للتطوير المستمر - ركز برنشتاين على إشكاليات المنطق والدلالة. وتقوم فرضيته الأساسية على أن التعلم والتنشئة الاجتماعية يتشكلان عبر الأسرة التي ينشأ فيها الأطفال، وأن البنية الاجتماعية تحدد ضمن عوامل أخرى السلوكات اللغوية. لقد لقيت نتائج أعمال بازل في البداية ترحيبا إيجابيا، لأنها كانت الأولى التي تحاول وصف الاختلاف اللغوي انطلاقا من الاختلاف الاجتماعي[4]. لذلك فقد طرح برنشتاين فرضية «الإعاقة اللغوية» ومفادها أن أطفال الطبقة العاملة يستنبطون شفرة محدودة مصدرها التركيب المحدود لآبائهم، وهم بذلك لا يستطيعون

(1).La Sociologie de l'éducation: 92

(٢) علم الاجتماع المدرسي: بنيوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها الاجتماعية: ١٦٩-١٧٠.

(٣) علم الاجتماع المدرسي: ١٧٠.

(4).La Sociolinguistique, 2017 :9

أن يحققوا تفوقا دراسيا. لأن من يقومون بتقييم منتوجهم والحكم عليهم هم أساتذة من الطبقة الوسطى انطلاقا من شفرتهم المتطورة(١). فالتباين اللغوي بين الأفراد يعود في رأيه إلى التباين في أنماط الحياة الاجتماعية، والتباين في أنماط التفكير والتصورات التي تحيط بكل فئة اجتماعية محددة. فنمط الحياة والتفكير عند الفلاحين يختلف عنه عند العمال أو الفئات الاجتماعية الوسطى. والسؤال الأساسي الذي طرحه برنشتاين هو: ما طبيعة العلاقة القائمة بين التحصيل المدرسي والتباين اللغوي؟ ومن أجل الإجابة عن هذا التساؤل بين برنشتاين أن اللغات العامية تتقارب أو تتباعد بدرجات مختلفة عن اللغة المدرسية، وهذا يعني في النهاية أن اللغة العامية هي اللغة الأكثر تجانسا مع اللغة المدرسية، وهي اللغة التي تتيح لأفرادها فرصا أفضل للنجاح والتفوق المدرسي. على العكس من ذلك كلما تباينت درجة التقارب بين اللغة الرسمية ولغة المدرسة كلما تقلصت فرص النجاح المدرسي عند الأطفال(٢).

إن عمل برنشتاين قام على الإجابة عن السؤال السوسيولوجي الكلاسيكي: كيف يصبح الخارج داخلا، وكيف يكشف الداخل عن نفسه ويشكل الخارج؟ فعمله كان مرتكزا على الكيفية التي تضبط بها استعمالات اللغة مجموع التوجهات الاجتماعية والمعرفية والهوياتية(٣).

يمكن تلخيص نظرية برنشتاين اللغوية في العناصر الأساسية الثلاث:

إن التطور اللغوي للطفل مشروط إلى حد كبير بالوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه.

إن نمو اللغة الشفوية وتطورها عنصر حاسم في نمو القدرات العقلية وتطورها عند الأطفال.

إن النمو اللغوي عند الطفل يتأثر بطبيعة الوسط العائلي الذي يعيش فيه، فالأوساط العليا تكون أنسب من الأوساط الدنيا التي تتميز بكونها بسيطة ومباشرة وسلطوية(٤).

لكن تدريجيا بدأت تظهر انتقادات للثنائية الحادة التي افترضها برنشتاين بين

(١) دليل السوسيولسانيات: ٦١.
(٢) علم الاجتماع المدرسي: ١٦٨.
(٣) دليل السوسيولسانيات: ٧٦٧.
(4)L'inégalité des chances: La mobilité sociale dans les sociétés industrielles: 60

النظامين. كما انتقد ضعف الأسس اللغوية لمفاهيمه. وكان ويليام لابوف أبرز من انتقدوه، فقد اعتبر أن برنشتاين لم يصف أنظمة لغوية حقيقية، بل مجرد أنماط أسلوبية، وأنه افتقر إلى نظرية تحليلية متكاملة[1]: «عندما يطلب وصف الفرق الحقيقي بين متحدثي الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة، يقدم لنا كما هائلا من التعابير مثل: أعتقد، وصيغ المبني للمجهول، والأفعال المساعدة، وضمائر المتكلم، والمفردات النادرة... لكن أليست هذه مجرد علامات شكلية (...)؟ سنُقدم خدمة جليلة لأنفسنا حين نتمكن أخيرا من التمييز ـ في أسلوب الطبقة المتوسطة ـ بين ما هو مجرد موضة لغوية، وما يساعد حقا على التعبير عن الأفكار بوضوح»[2].

لقد رد برنشتاين على مجمل الانتقادات التي وجهت لنظريته، لكنه بالرغم من ذلك كله، لم تستطع نظريته أن تقوم إذ سرعان ما فقدت تدريجيا ألقها، وقوتها التفسيرية لصالح التفسيرات التي قدمتها النظرية اللسانية الاجتماعية، لذلك لم تكن نظريته إلا منعطفا في مسار تبلور لسانيات اجتماعية قادرة على تفسير العلاقة القائمة بين المتغيرات اللغوية والاجتماعية وبين البنى اللغوية والاجتماعية. «لذلك فمقاربة برنشتاين للاختلافات المرتبطة بالطبقات الاجتماعية في السلوك اللغوي تم التخلي عنها بسرعة، ولذلك كان أثرها في تطور الخطاب السوسيو لساني بطريقة ربما أقل مما كان ينتظر»[3]. لكن النظرية امتد تأثيرها في دراسات لسانية واجتماعية لاحقة. إلا أن ما قد نخلص به من خلال عمل برنشتاين هو أنه بعمله هذا، أبرز دور الانتماء الاجتماعي في البنيات اللغوية التركيبية والمعجمية لدى أبناء الطبقات المحرومة والميسورة، وآليات اشتغال البنيات اللغوية لدى كلا طبقتين، وأثرها على الواقع الطبقي المستقبلي لأبناء كل الطبقتين.

٢-٢- المتغير الصوتي والطبقة الاجتماعية عند ويليام لابوف:

إن أهمية عمل لابوف فيما يخص المتغير الصوتي في علاقته بالبنى الاجتماعية أنه وظف الدراسة الكمية باعتماد جملة من الأدوات والوسائل الإحصائية والتقنية التي أعطت لنتائج عمله مصداقية كبيرة، وقد أفاده عمله السابق ككيميائي صناعي في

(1)La Sociolinguistique, 2017: 9 .
(2)Le Parler ordinaire: 136 .
(٣) دليل السوسيولسانيات: ٢٨.

كسبه قوة الملاحظة والدقة في الوصف والمقارنة، ويظهر هذا جليا من خلال أعماله. في أطروحته للدراسات العليا سنة ١٩٦٣ المعنونة بـ: «التحفيز الاجتماعي للتغير الصوتي» والتي خصها لدراسته التي أنجزها على المنتزه الصيفي لمارتاس فينيارد (Martha's Vineyard)، وفي أطروحته للدكتوراه سنة ١٩٦٦ حول «التنضيد الاجتماعي للإنجليزية في مدينة نيويورك»، إن عمل لابوف ارتكز على دراسة المتغير الصوتي في علاقته بالانتماء الاجتماعي.

فإذا أخذنا على سبيل المثال عمله الثاني الذي خصه لمتكلمي نيويورك باختلاف أصلهم الإثني: النيويوركيون، الإيطاليون، اليهود، السود، بانتماءاتهم الطبقية: العليا والسفلى، على أساس الدخل، والمستوى المهني. والذي أدرج فيه المتغير الأسلوبي في تحليله، مع تسجيله للكلام بنوعيه الرسمي وغير الرسمي، وقراءة النص المكتوب بصوت عال، وقراءة سلسلة من أزواج الكلمات، وذلك لتغطية فئات الكلام بطريقة أكثر عفوية. فإن أهمية عمله هذا تتمثل في حسابه لمتغيرات الأنواع اللغوية في نماذج مختلفة من الخطاب، ثم كتابة «قواعد متغيرة»، أما النتائج المحصل عليها فهي لم تعبر عن أرقام فردية، لكنها كانت أرقاما لكل مجموعة اجتماعية بالنسبة لكل أسلوب أو نمط»[١].

فإذا أخذنا دراسته حول استعمال الصائت ما بعد الصائتي (r) لدى المساعدات بالمتاجر من ثلاث طبقات اجتماعية - وهي الأولى في ستة بحوث تتناول بشكل أساسي الدراسة الاجتماعية اللغوية لمدينة نيويورك - فقد تمكن لابوف من تحديد المتغيرات الصوتية الرئيسية التي عليه دراستها بما في ذلك (r)، أي وجود وغياب الحرف الساكن[r] في موضع ما بعد الصوت في card, car, four, fourth, (سيارة، بطاقة، الرابعة، أربعة)، إلخ، وقد أثبت هذا المتغير الأخير - على وجه الخصوص - أنه حساس للغاية في قياس الطبقات الاجتماعية أو الأسلوبية. وقد كشفت المقابلات التحضيرية عن إمكانية اختبار فكرتين عامتين تجريبيا: الأولى، أن المتغير اللغوي (r) يمثل عاملاً من عوامل التمايز الاجتماعي لجميع مستويات اللغة في نيويورك، والثانية، أن العبارات القصيرة المجهولة يمكن أن تكون بمثابة أساس لدراسة منهجية للغة. وقد تم إجراء الدراسة في المتاجر الكبرى المذكورة لهذا الغرض. لقد كان هناك تحد منطقي أمام لابوف، وهو أنه لا يمكن للمرء أن يفكر في التوزيع الاجتماعي للغة في

(١) دليل السوسيولسانيات: ٥٧.

نيويورك دون أن يواجه على الفور الطبقات الاجتماعية التي تشكل هيكل حياة المدينة بأكملها[1].

إن تحديد العينة المدروسة بدقة كان أحد أهم انشغالات لابوف لطبيعة دراسته، ولحرصه الشديد على الوصول لنتائج دقيقة عن هذا المتغير الصوتي، علما أن التحدي الذي كان يواجهه هو نفسه الذي يواجه أي باحث في دراسة المتغيرات اللغوية في المدن والحواضر، بعكس القرى والبوادي، لكثرة التعقيدات الاجتماعية التي تعيشها الأولى، وخاصة مدينة كبيرة مثل نيويورك، لذلك فهو اختار حيا من كبار أحياء نيويورك، واختار منها محلات بعينها لبيع الأحذية. فأقام اختبارا صارما عن طريق تقسيم دقيق ضمن مجموعة مهنية واحدة: موظفو بعض المتاجر الكبرى في مانهاتن. إذ اختار ثلاثة متاجر كبرى، في الأعلى والوسط والأسفل بحسب مقياس الأسعار والزبائن، متوقعا أن يكون عملاؤها مصنفين اجتماعيا، وأخذ بعين الاعتبار الوضع النسبي للمتاجر وتسلسل الوظائف المتكافئة في المؤسسات الثلاثة؛ ثم بين الوظائف وسلوكيات العاملين فيها.

رهان لابوف كان منصبا على اختبار فرضياته التي سبق له أن صاغها فيما يخص استخداما لغويا بعينه، وهو تخصص (r) في نيويورك. ويمثل هذا المتغير وجود الصوت (r) أو عدم وجوده. وقد أدرك أن نيويورك تستخدم نسختين بديلا معينا حينا، والأخرى في أحيان أخرى. وهذا الأمر ذو أهمية خاصة لأنه يعكس تغيرا معينا كان يحدث في ذلك الوقت، حيث كان أهل نيويورك ينتقلون إلى الاستخدام البديل من النسخة الثابتة السابقة، وهو: (r)، (كما هو الحال في الإنجليزية البريطانية)، نحو معيار جديد ثابت نسبيا هو[r] (كما هو الحال في كثير من لكنات الولايات المتحدة)[2].

كان المنهج المستخدم في الدراسة بسيطا جدا، يوائم جملة الفرضيات التي طرحها لابوف. فعمله كان يقوم على مروره على ثلاثة من أضخم محلات نيويورك، وسؤال بائعات المحل عن نوع معين من البضاعة، يعرف جيدا أنه في الدور الرابع. وقد أجابت كل بائعة من البائعات بالإجابة المتوقعة: «الدور الرابع» أو «في الدور الرابع» «the fourth floor» On «Fourth floor». ولتأكيد النطق وإظهاره كان

(1) .Sociolinguistique, 1989: 95

(٢) علم اللغة الاجتماعي: ٢٥٠.

لابوف يتظاهر بأنه لم يسمع حتى يجبر البائعة على تكرار إجابتها. وباختياره للكلمتين «fourth» و «floor» استطاع أن يختبر الفرضية الخاصة بالسياق اللغوي، لأن الـ (r) يتبعها حرف صامت في fourth، وذلك على عكس الوضع في floor. وعن طريق التظاهر بعدم السمع في المرة الأولى، استطاع أن يختبر الفرضية الخاصة بأهمية درجة الالتفات الى الكلام، لأن البائعة تكون بالطبع أكثر حذرا ووضوحا في المرة الثانية. واستطاع لابوف أيضا أن يختبر الفرضية الخاصة بسن المتحدث بتخمين عمر البائع، ونوعية المحل باعتبار نوعية الزبناء الذين تقدم خدماتها لهم، من أعلى مكانة إلى الطبقة المتوسطة وانتهاء بالطبقات الدنيا، ووضع معايير تخص البضائع التي تبيعها، والصحف التي تعلن فيها هذه المحلات عن بضائعها، والعاملين فيها، ونوعية وظائفهم، ومكان تواجدهم، حيث إن البضائع ذات الجودة العالية تكون في الأدوار العليا عادة[١].

انتهت النتائج التي توصل إليها لابوف إلى إثبات الفرضيات التي انطلق منها فيما يخص استعمال الصوت (r). فسجل انخفاض استعمال الصيغة [r] :(r) في المتاجر الفاخرة عنها في المتاجر التي تتردد عليها الطبقات الدنيا. أما فيما يتعلق بسن المستجوبين فإن نتائجها دفعت لابوف لمراجعة فرضيته الأصلية التي تقول: بأن كبار السن يميلون لاستخدام البديل الأقدم r) :Ø)، بنسبة أكبر من الشباب الذين يفضلون الصيغة الجديدة [r]:(r)، إلى الفرضية المعدلة بجعلها تقتصر على من ينتمون إلى الجماعات ذات المكانة الاجتماعية العالية، ومن ينتمون إلى الجماعات ذات المكانة الاجتماعية الدنيا. وفق هذا التعديل تكون هاتان الجماعتان أقل الجماعات عرضة لتغيير لكنتها بعد فترة المراهقة، وذلك على عكس الجماعات ذات المكانة المتوسطة التي قد تدفعها تطلعاتها الاجتماعية لتغيير لكنتها في منتصف العمر حتى تصبح أكثر شبها بلكنات الفئات الاجتماعية العليا[٢]. إن النتيجة الرئيسية التي يمكننا أن نخرج منها من هذه الدراسة أن مختلف الكيفيات التي نطق بها المستجوبون تعكس اختلافاتهم الطبقية والاجتماعية.

إن عمل لابوف هذا وغيره يثبت جملة الفرضيات المؤسسة للنظرية الاجتماعية التي تقوم على اعتبار المتغيرات اللغوية هي نتائج للانتماء الاجتماعي. وأن هناك علاقة

(١) علم اللغة الاجتماعي: ٢٥١-٢٥٢.
(٢) علم اللغة الاجتماعي: ٢٥٢-٢٥٤.

سببية بين المتغير اللغوي والمتغير الاجتماعي في الغالب. فالمكونات والجماعات والطبقات تكون حريصة أيما حرص على التعامل مع لغاتها وفق محددها الاجتماعي بين الرفض للتغيير؛ لأنه يمس بانتمائها الاجتماعي وانتمائه، والحرص على الحفاظ على البنى اللغوية بالطريقة الشرعية أو المعيار التي تستعمل بها، وبين تلك التي تسعى جاهدة لإثبات التغييرات والحرص عليها، لإظهار الرقي الاجتماعي أو رفضا لواقعها الطبقي. إن المتغير اللغوي الصوتي لدى لابوف لا يرتبط وجوده فقط بالبنية الداخلية للغة كما تذهب لذلك اللسانيات العامة، بل إن له ارتباطا بعوامل خارجية غير لغوية. لذلك فقد اختار الدراسة الكمية للصوت على تلك التي تعتمد على الكيف.

٣- المقارنة المنهجية بين مقاربتي برنشتاين ولابوف للعلاقة بين الانتماء الاجتماعي والمتغيرات اللغوية:

تُظهر دراسة مقاربتي بازل برنشتاين ووبليام لابوف أن الاهتمام بالعلاقة بين اللغة والمجتمع لا يقود ضرورة إلى تصور نظري أو منهجي موحد بينهما؛ إذ تؤكد المقارنة بين مشروعيهما اللسانيين وجود تباين في الأسئلة المطروحة والمفاهيم الموظفة والأدوات التحليلية والآليات التفسيرية المستخدمة من طرفهما في دراسة الظاهرة اللغوية من منطلقات اجتماعية، وذلك تبعا لاختلاف الظواهر التي يتناولانها والنتائج التي يسعيان إلى الوصول إليها. فإذا كان برنشتاين قد انطلق من دراسة العلاقة بين التنشئة الاجتماعية وأنماط التواصل، مركزا على الشفرتين المحدودة والموسعة وانعكاساتهما المحتملة على التعلم المدرسي، فإن لابوف اتجه إلى دراسة التغير اللغوي في الاستعمال الفعلي، والكشف عن انتظام توزيعه في ضوء المتغيرات الاجتماعية. ومن ثم، فإن المقارنة بينهما تقتضي التمييز بين المنطلقات النظرية لكل مقاربة، وطبيعة الظواهر المدروسة، والإجراءات المعتمدة في تحليلها، وحدود النتائج التي تسمح بها المعطيات.

٣-١- أوجه الاتفاق والاختلاف في المنطلق النظري:

يشترك برنشتاين ولابوف في النظر إلى اللغة باعتبارها نسقًا غير مستقل عن مستعمليه، وفي الاهتمام بدور السياق الاجتماعي في تفسير الاختلافات اللغوية. غير

أن هذا الاشتراك لا يلغي الاختلاف بينهما في تحديد طبيعة العلاقة بين المتغيرات الاجتماعية واللغوية.

فقد انصب اهتمام برنشتاين على العلاقة بين أشكال التنظيم الاجتماعي وأنماط التواصل، من خلال مفهوم الشفرة المحدودة والشفرة الموسعة. ويتيح هذا التصور بحث الكيفية التي تؤثر بها أنماط التنشئة والتفاعل الاجتماعي في طرائق بناء المعنى والتعبير عنه. أما لابوف، فقد جعل التغير اللغوي موضوعا مركزيا للتحليل، ساعيا إلى تحديد المتغيرات اللغوية ورصد أشكال تحققها، ثم دراسة توزيعها بين المتكلمين في ضوء عوامل اجتماعية وسياقية محددة.

ويعكس هذا الاختلاف بينهما تباينا في المنطلقات النظرية والإجراءات المنهجية؛ فبرنشتاين يدرس العلاقة بين اللغة والمجتمع من خلال ربط أنماط التواصل بالتنشئة الاجتماعية والتنظيم الرمزي، مستندا إلى ملاحظات ومعطيات تجريبية تتصل بالسياقات الأسرية والتربوية، في حين يركز لابوف على رصد المتغيرات اللغوية وقياس توزّعها بين الفئات الاجتماعية والأساليب الكلامية، وتحليل انتظامها بالاستناد إلى البحث الميداني الكمي.

٣-٢- اختلاف مستويات التحليل وأدوات البحث:

يتجلى الوجه الثاني للاختلاف بين الباحثين في مستويات التحليل وأدوات البحث. فقد ركز برنشتاين على الخصائص التركيبية والدلالية وأنماط التواصل، مستعينا في ذلك بتحليل المنتجات اللغوية في سياقات التنشئة الأسرية والتعليم المدرسي. وتندرج تجربته القائمة على وصف الأطفال لقصة مصورة ضمن محاولاته الكشف عن الاختلافات في طرائق بناء الخطاب وتنظيم المعنى، وما قد يرتبط بها من شروط اجتماعية وتربوية.

أما لابوف، فقد اتجه إلى دراسة متغيرات لغوية محددة، ومنها المتغير الصوتي /r/ في مدينة نيويورك. واعتمد في دراسته المعروفة للتنضيد الاجتماعي لهذا المتغير على جمع معطيات من عاملات في ثلاثة متاجر تختلف في مكانتها الاجتماعية، مع مراعاة اختلاف السياقات الأسلوبية في النطق. وقد أتاح له هذا الإجراء مقارنة أنماط تحقق المتغير الصوتي بين المجموعات المدروسة، والكشف عن انتظام يربط استعماله بالمكانة الاجتماعية وبدرجة الانتباه إلى الكلام.

إن هذا التباين بين المقاربتين يكشف عن اختلاف في طبيعة الأدلة المعتمدة؛ إذ تتجه مقاربة برنشتاين إلى تفسير العلاقة بين التنشئة الاجتماعية وأنماط إنتاج المعنى، بينما تتجه مقاربة لابوف إلى رصد التغير اللغوي وقياس توزيعه الاجتماعي والأسلوبي. ولا يعني ذلك أن عمل برنشتاين يخلو من المعطيات التجريبية، أو أن لابوف يكتفي بوصف الأشكال الصوتية بمعزل عن تفسيرها، بل إن الاختلاف يتعلق بنوعية الأسئلة والإجراءات التي ينظم بها كل منهما بحثه.

٣-٣- تفسير العلاقة بين الانتماء الاجتماعي والمتغيرات اللغوية:

إن هذه المقارنة المنجزة بين الباحثين تساعد على توضيح الفرق بين الربط النظري بين اللغة والمجتمع، وإثبات وجود انتظامات محددة بين متغيرات لغوية واجتماعية. ففي مقاربة برنشتاين، تُفسر الاختلافات في أنماط التواصل في ضوء العلاقة بين التنشئة الاجتماعية والشفرتين المحدودة والموسعة، مع اهتمام خاص بما قد يترتب على هذه العلاقة في السياق المدرسي، نتيجة للانتماء الاجتماعي والطبقي. غير أن تعميم هذه النتائج على القدرات المعرفية للفئات الاجتماعية المختلفة، أو اعتبار أحد النمطين اللغويين دليلا على قصور معرفي لدى مستعمليه، يقتضي أدلة إضافية لا يوفرها مجرد رصد الاختلافات في البنية اللغوية.

أما بالنسبة لمقاربة لابوف، فتتيح دراساته الميدانية الكشف عن علاقات منتظمة بين بعض المتغيرات اللغوية والعوامل الاجتماعية والأسلوبية. فمثلا تبين دراسته للمتغير /r/ أن استعمال الصيغة المنطوقة يتدرج بين المتاجر الثلاثة بحسب ترتيبها الاجتماعي، كما يتأثر بدرجة الانتباه إلى الكلام. غير أن هذه النتيجة لا تعني أن الانتماء الطبقي يؤدي بصورة آلية حتمية إلى نتيجة بعينها، بل تكشف عن ارتباط بين المتغير الصوتي ومجموعة من العوامل التي ينبغي تفسيرها في سياقها التاريخي والاجتماعي.

وعليه، فإن كانت المقاربتان تنطلقان من مسلمة تقوم على الربط بين اللغة والمجتمع، فإن الفرق بينهما لا يكمن في إثبات مقدار الأثر الاجتماعي في المتغيرات اللغوية أو في تقليل منه، وإنما في طبيعة العلاقة التي تبحثانها، وفي كيفية إقامة الدليل عليها. فبرنشتاين يهتم بدور التنشئة الاجتماعية في تشكيل القدرات التواصلية، بينما يسعى لابوف إلى تحديد أنماط التغير اللغوي وتفسير توزيعه بين الجماعات

الاجتماعية. ويقتضي ذلك التمييز بين الارتباط والتفسير السببي، وعدم افتراض أن كل تغير اجتماعي يقابله بالضرورة تغير لغوي محدد، أو أن كل اختلاف لغوي يمكن تفسيره بعامل اجتماعي واحد.

٣-٤- القيمة التفسيرية وحدود المقاربتين:

تتمثل القيمة العلمية لمقاربة برنشتاين في لفت الانتباه إلى دور التنشئة الاجتماعية وأنماط التواصل في فهم العلاقة بين اللغة والتعلم المدرسي. غير أن الثنائية التي أقامها بين الشفرتين المحدودة والموسعة أثارت نقاشا نقديا حول مدى صلاحية تعميم خصائصهما على فئات اجتماعية بعينها، وحول الانتقال من وصف الاختلاف اللغوي إلى استنتاجات تتعلق بالقدرات المعرفية. ومن ثم، ينبغي التعامل مع مفاهيمه في سياقها النظري، دون تحويلها إلى أحكام تقويمية مطلقة على لغة الفئات الاجتماعية أو قدراتها.

أما مقاربة لابوف، فتبرز أهميتها في تطوير الدراسة الميدانية للتغير اللغوي، من خلال الجمع بين الملاحظة المنهجية والتحليل الكمي ومراعاة السياقات الاجتماعية والأسلوبية. ومع ذلك، فإن النتائج التي يتوصل إليها الباحث تظل مرتبطة بطبيعة العينة والمتغيرات المدروسة والسياق الذي جُمعت فيه المعطيات؛ لذلك لا يصح تعميمها دون مراعاة اختلاف الجماعات والظروف التاريخية والاجتماعية.

وبناء على ذلك، لا ينبغي النظر إلى المقاربتين باعتبارهما تفسيرين متطابقين للظاهرة نفسها، أو اعتبار إحداهما بديلا عن الأخرى. فلكل منهما مجالها التحليلي وأسئلتها وأدواتها التفسيرية، أما أهمية المقارنة بينهما فتكمن في توسيع فهم العلاقة بين اللغة والمجتمع، بشرط الحفاظ على التمييز بين أنماط التواصل والتغاير اللغوي، وبين الوصف التجريبي والتفسير النظري، وبين الارتباط الاجتماعي والعلاقة السببية.

وخلاصة القول في هذه المقارنة بين المقاربتين أن مقاربة برنشتاين أسهمت في إبراز أهمية التنشئة الاجتماعية في تفسير أنماط التواصل، في حين كان لمقاربة لابوف دورها الفاعل في تطوير دراسة التغير اللغوي من خلال البحث الميداني والتحليل الكمي لتوزيعه الاجتماعي والأسلوبي. كما يكشف هذا الاختلاف بينهما عن تعدد المداخل المنهجية لدراسة العلاقة بين الانتماء الاجتماعي والمتغيرات اللغوية، ويؤكد

ضرورة بناء النتائج على المعطيات المتاحة، وتجنب التعميمات التي تتجاوز حدود ما تسمح به الأدلة، ونفي الربط الحتمي بين التغير اللغوي والاجتماعي، بل يمكن اعتبار هذا الأخير واحدا من مجموعة من الأسباب المؤثرة والفاعلة في إحداث التغير اللغوي في جميع مستوياته: الصوتية والصرفية والمعجمية والدلالية والتركيبية.

خاتمة:

في الختام، يتبيّن جليًا أن الانتماء الاجتماعي يلعب دورًا جوهريًا في إحداث التغيرات اللغوية التي تصيب بنيات اللغة المستعملة من قبل أفراد الجماعة اللغوية. إذ إن التغير اللغوي في المستويات التركيبية والمعجمية والصوتية هو نتاج مباشر للموقع الطبقي والاجتماعي للمتكلم، ما يجعل السلوك اللغوي غير محايد تجاه هذه المتغيرات الخارجية، رغم حيادية اللغة في ذاتها. ومن خلال التحليل المقارن لأعمال كل من بازل برنشتاين ووبليام لابوف، تبينت مجموعة من الفرضيات والنتائج التي توضح كيفية اشتغال العلاقة بين اللغة والمجتمع، والطريقة التي تعكس بها البنى اللغوية صوتيًا ومعجميًا وتركيبيًا انتماء المتكلمين الاجتماعي. إن اللغة تشبه تيارًا مائيًا يجري في مجرى الأرض، حيث تحدد تضاريس هذا المجرى شكله، وتؤثر في خصائصه، بينما يحمل التيار بدوره أثقالًا وخفائف مختلفة، في تعبير مجازي يوضح التفاعل الديناميكي بين اللغة والمجتمع. لذلك، فإن فهم العلاقة المعقدة بين المتغيرات اللغوية والاجتماعية يسهم في تعميق الوعي بدور اللغة كمرآة تعكس البنية الاجتماعية، ويؤكد أهمية الدراسات اللغوية الاجتماعية في سياق التحولات المجتمعية المعاصرة.

تفتح هذه الدراسة آفاقًا بحثية جديدة تتمثل في استكشاف المزيد من المتغيرات الاجتماعية والثقافية وتأثيرها على مستويات لغوية أخرى، بالإضافة إلى دراسة هذه الظواهر في سياقات جغرافية وثقافية مختلفة، ولا سيما في المجتمعات العربية التي تحتاج إلى المزيد من الأبحاث المقارنة. كما تبرز الحاجة إلى دمج مناهج متعددة التخصصات لفهم أعمق للعلاقة بين اللغة والمجتمع، مما يساهم في إثراء النظرية اللسانية وتطوير تطبيقاتها العملية في مجالات التربية والهوية والاندماج الاجتماعي.

المصادر والمراجع

١. الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية)، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

٢. دليل السوسيولسانيات، فلوريان كولماس، ترجمة: خالد الأشهب وماجدولين النهيبي، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

٣. علم الاجتماع المدرسي: بنيوية الظاهرة المدرسية ووظيفتها الاجتماعية، علي أسعد وطفة وعلي جاسم الشهاب، طبعة إلكترونية، ط١، ٢٠٠٣.

٤. علم اللغة الاجتماعي، ريتشارد هدسون، ترجمة: محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠.

٥. علم اللغة الاجتماعي عند العرب، هادي نهر، طبع ونشر جامعة المستنصرية، بغداد، ط١، ١٩٨٨.

٦. علم اللغة العام، فرديناند دو سوسير، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، عدد ٣، ١٩٨٥.

٧. القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٧.

٨. اللغة والطبقة والانتماء الاجتماعي: رؤية نقدية في طروحات بازيل برينشتاين، علي أسعد وطفة، الصفحة الرسمية لأسعد وطفة، تاريخ الاطلاع: ٢٠ أبريل ٢٠٢٥، متاح على: https://watfa.net/archives/١٢٢٨.

٩. اللغة والمجتمع: رأي ومنهج، محمود السعران، بنغازي، ط١، ١٩٥٨.

١٠. معجم اللغويات الاجتماعية، مجموعة من المؤلفين، ترجمة: فواز محمد الراشد العبد الحق وعبد الرحمن حسني أحمد أبو ملحم، منشورات مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، دار وجوه للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠١٩.

11. Boudon Raymond, L'inégalité des chances: La mobilité sociale dans les sociétés industrielles, Armand Colin, Paris, 1973.

12. De Coster (s.) et Hotyat Fernand, La Sociologie de l'éducation Université de Bruxelles, Bruxelles, 1970.

13. Louis-Jean. Calvet, La Sociolinguistique. Paris, Presses Universitaires de France / Humensi, 2017.

14. P. M. Chauvin et G. Truc. Langage et classes sociales, de B. Bernstein. Melissa. le 22 Janvier 2003. [En ligne], [consulté le 20 avril 2025], Disponible sur : https://mathilde.dhenin.fr/wp-content/uploads/dhenin/PhiloPistes/Langage_domination/Langage%20et%20classes%20sociales.pdf

15. William Labov, Le Parler ordinaire, Minuit, Paris, t.1,1978.

16. William Labov, Sociolinguistique, Les Éditions de Minuit, Paris, 1989.

References

1. al-Alsunīyah al-tawlīdīyah wa-al-taḥwīlīyah wa-qawā'id al-lughah al-'Arabīyah (al-naẓarīyah al-alsunīyah), Mīshāl Zakarīyā, al-Mu'assasah al-Jāmi'īyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr wa-al-Tawzī', Bayrūt, ṭ. 2, 1986.

2. Dalīl al-sūsiyūlisānīyāt, Flūriyān Kūlmās, tarjamat: Khālid al-Ashhab wa-Mājdūlīn al-Nahībī, Manshūrāt al-Munaẓẓamah al-'Arabīyah lil-Tarjamah, Bayrūt, ṭ. 1, 2009.

3. 'Ilm al-ijtimā' al-madrasī: binyawīyat al-ẓāhirah al-madrasīyah wa-waẓīfatuhā al-ijtimā'īyah, 'Alī As'ad Waṭfah wa-'Alī Jāsim al-Shihāb, ṭab'ah iliktirūnīyah, ṭ. 1, 2003

4. 'Ilm al-lughah al-'āmm, Firdīnānd dū Sūsīr, tarjamat: Yū'īl Yūsuf 'Azīz, Dār Āfāq 'Arabīyah, Baghdād, 'adad 3, 1985.

5. 'Ilm al-lughah al-ijtimā'ī, Rītshārd Hadsūn, tarjamat: Maḥmūd 'Ayyād, 'Ālam al-Kutub, al-Qāhirah, ṭ. 2, 1990.

6. 'Ilm al-lughah al-ijtimā'ī 'inda al-'Arab, Hādī Nahr, ṭab' wa-

nashr Jāmi‘at al-Mustanṣirīyah, Baghdād, ṭ. 1, 1988.

7. L’inégalité des chances: La mobilité sociale dans les sociétés industrielles, Boudon Raymond, Armand Colin, Paris, 1973.

8. Langage et classes sociales, de B. Bernstein, P. M. Chauvin et G. Truc, Melissa, le 22 Janvier 2003, [En ligne], [consulté le 20 avril 2025], Disponible sur : https://mathilde.dhenin.fr/wp-content/uploads/dhenin/PhiloPistes/Langage_domination/Langage%20et%20classes%20sociales.pdf.

9. al-Lughah wa-al-mujtama‘: ra’y wa-manhaj, Maḥmūd al-Sa‘rān, Banghāzī, ṭ. 1, 1958.

10. al-Lughah wa-al-ṭabaqah wa-al-intimā’ al-ijtimā‘ī: ru’yah naqdīyah fī ṭurūḥāt Bāzīl Brīnshtāyn, ‘Alī As‘ad Waṭfah, al-ṣafḥah al-rasmīyah li-As‘ad Waṭfah, tārīkh al-iṭṭilā‘: 20 Abrīl 2025, mutāḥ ‘alá: https://watfa.net/archives/1228.

11. Mu‘jam al-lughawīyāt al-ijtimā‘īyah, Majmū‘ah min al-mu’allifīn, tarjamat: Fawwāz Muḥammad al-Rāshid al-‘Abd al-Ḥaqq wa-‘Abd al-Raḥmān Ḥusnī Aḥmad Abū Mulḥim, Manshūrāt Markaz al-Malik ‘Abd Allāh ibn ‘Abd al-‘Azīz al-Duwalī li-Khidmat al-Lughah al-‘Arabīyah, Dār Wujūh lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, al-Riyāḍ, ṭ. 1, 2019.

12. Le Parler ordinaire, William Labov, Minuit, Paris, t. 1, 1978.

13. al-Qāmūs al-mawsū‘ī al-jadīd li-‘ulūm al-lisān, Ūzwāld Dīkrū wa-Jān Mārī Sshāyfir, tarjamat: Mundhir ‘Ayyāshī, al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, al-Dār al-Bayḍā’, ṭ. 2, 2007.

14. La Sociolinguistique, Louis-Jean Calvet, Presses Universitaires de France / Humensi, Paris, 2017.

15. Sociolinguistique, William Labov, Les Éditions de Minuit, Paris, 1989.

16. La Sociologie de l’éducation, De Coster (s.) et Hotyat Fernand, Université de Bruxelles, Bruxelles, 1970.